Sadaa Al-qalum Journal
مجلة صدى القلم
Online-ISSN: 3104-6371
مجلة صدي القلم للعلوم الإنسانية والتطبيقية

البكاء في الشعر الجاهلي

أ.حافظ الفيتوري محمد البكوش
قسم اللغة العربية - كلية التربية الزنتان - جامعة الزنتان- ليبيا
hafedbakosh@gmail.com

Received: 15. 11, 2025 Accepted: 22. 11, 2025 Published: 02 .12, 2025

الملخص

البكاء في الشعر الجاهلي ليس مجرد دموع بل وسيلة فنية للتعبير عن الحزن والحنين والفقد وعن ارتباط الشاعر بالمكان والإنسان والذكريات، والبكاء يُعد ظاهرة فنية ودلالية ذات أبعاد نفسية واجتماعية وثقافية، ارتبطت بطبيعة الحياة الجاهلية القائمة على الترحال وعدم الاستقرار وما يرافقها من فقد دائم للأمكنة والأشخاص.

ومن الناحية الفنية فإن البكاء يوظف بوصفه عنصراً بنائياً في القصيدة الجاهلية خاصة في المقدمة الطللية حيث يشكل مدخلاً انفعالياً يمهد للموضوع الرئيسي.

وأيضاً البكاء يعكس الحالة النفسية للشاعر الجاهلي، إذ يعبر عن الإحساس بالفقد والحنين والاغتراب وهو استجابة طبيعة لواقع قاسٍ يتسم بالطرق والموت والحروب.

يُعد البكاء وسيلة لتفريغ التوتر العاطفي وتأكيد عمق التجربة الشعرية، وحيث يتجاوز البكاء معناه الحنيني ليصبح رمزاً لزوال الزمن الماضي وانقطاع الصلة بين الشاعر وما فقده، سواءً أكان مكاناً أم إنساناً، مما يمنحه بُعداً فلسفياً يتصل بتأمل المصير الإنساني.

وأخيراً البكاء في الشعر الجاهلي ظاهرة مركبة تجمع بين الوظيفة الفنية والتعبير النفسي والدلالة الثقافية، قد أسهم في تشكيل بنية القصيدة الجاهلية ومدخلها فأضاف إليها صدقاً وجدانياً وعمقاً إنسانياً.

مقدمة:

تعريف بالشعر الجاهلي:

قد يتبادر إلى الأذهان أن العصر الجاهلي يشمل كل ما سبق الإسلام من حِقبٍ وأزمنة، فهو يدل على الأطوار التاريخية للجزيرة العربية في عصورها القديمة قبل الميلاد، وإنما الشعر الجاهلي عموماً باعتباره الأصل القديم للشعر العربي، فالشعر الجاهلي يمثل نقلة مرحلية متطورة، أو بتعبير معاصر يمثل الواقعية الجديدة في ذلك العصر، وهي التي أعقبت المرحلة القديمة التي تُعرف بالكلاسيكية، حيث الأساس الديني الوثني بأشكاله الغيبية والأسطورية واضحة في العطاء الشعري.

أما الشعر الجاهلي الذي وصل إلينا فهو اتجاه جاد نحو واقع الإنسان العربي في قبيلته أو مجاله العربي.

ويؤكد بعض الباحثين بأن الشعر الجاهلي مرحلة واقعية متطورة، خرج الشعر فيها من غيبوبة العقل إلى وضوح الرؤية والواقع.

ونجد الجاحظ يقول بوضوح "أما الشعر العربي فحديث الميلاد صغير السن، أول من نهج سبيله وسهّل الطريق إليه المهلّهل بن ربيعة والقس بن حُجر ...

فإذا استظهرنا الشعر وجدنا له - إلى أن جاء الله بالإسلام - خمسين ومائة عام، وإذا استظهرنا بغاية الاستظهار فمائتي عام". (1)

"من أجل ذلك كله نقف بالعصر الجاهلي عند هذه الفترة المحدودة، أي عند مائة وخمسين عاماً قبل الإسلام، وما وراء ذلك يمكن تسميته بالجاهلية الأولى، وهو يخرج عن هذا العصر الذي ورثنا عنه الشعر الجاهلي، واللغة الجاهلية، والذي قد تكامل فيه نشوء الخط العربي وتشكله تشكلا تاماً.(2)

وقد استخدم منذ القديم كلمة الجاهلية للدلالة على السفه والطيش والحمق، وقد أخذت تطلق على العصر القريب من الإسلام، أو بعبارة أدق على العصر السابق له مباشرة، وكل ما كان فيه من وثنية وأخلاق قوامها الحمية والأخذ بالثأر واقتراف ما حرّمه الدين الحنيف من موبقات. (3)

لم يكن أدب ما قبل الإسلام نوعاً من العبث أو الهراء الذي صدر عن بدو لا يمتون إلى الحياة ذات النظم بصلة، وإنما كان تعبيراً لأمةً عاشت في شبه جزيرتها أحداثاً جِساماً، وصراعات هائلة عبر قرون عدة - قبل الميلاد وبعده - عرفت خلال سنين هذه القرون في أنحاء متفرقة من ترابها غزو الطامعين.

"وقد وردت كلمة (الجاهلية) في القرآن الكريم مرة بصيغة الفعل واشتقاقاته وجدنا كلمة (الجاهلين) بصيغة اسم الفاعل التي وردت في تسعة مواضع:

- سورة يوسف في موضعين:
  - (قَالَ هَلْ عَلِمْتُم مَّا فَعَلْتُم بِيُوسُفَ وَأَخِيهِ إِذْ أَنتُمْ جَاهِلُونَ)، الآية (89).
  - (.... وإِلَّا تَصْرِفْ عَنِّي كَيْدَهُنَّ أَصْبُ إِلَيْهِنَّ وَأَكُن مِّنَ الْجَاهِلِينَ)، من الآية (33).
- والفرقان: (... وَإِذَا خَاطَبَهُمُ الْجَاهِلُونَ قَالُوا سَلاماً)، من الآية (62).
- والزمر: (قُلْ أَفَغَيْرَ اللهِ تَأْمُرُونِيَ أَعْبُدُ أَيُّهَا الْجَاهِلُونَ)، الآية (61).
- والبقرة: (... قَالُوا أَتَتَّخِذْنَا هُزُؤاً قَالَ أَعُوذُ بِاللَّهِ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْجَاهِلِينَ)، من الآية (66)
- والأنعام: (... وَلَوْ شَاءَ اللهُ لَجَمَعَهُمْ عَلَى الْهُدَى فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْجَاهِلِينَ)، من الآية (36)
- والأعراف: (خُذِ الْعَفْوَ وَأْمُرْ بِالْعُرْفِ وَأعْرِضْ عَنِ الْجَاهِلِينَ)، الآية (199)
- وهود: .... (إِنّي أَعِظُكَ أَن تَكُونَ مِنَ الْجَاهِلِينَ)، من الآية (46).

والقصص: (.... لَنَا أَعْمَالُنَا وَلَكُمْ أَعْمَالُكُمْ سَلَامٌ عَلَيْكُمْ لَا نَبْتَغِي الجَاهِلِينَ)، من الآية (55). (4)

وقد روى أبو هلال العسكري خبراً يقول نصه: أن أول ما قيل الجاهلية إن امرأة جاءت إلى رسول الله (صلى الله عليه وسلم) فقالت: (يا رسول الله أن إبلاً لي أصيبت في الجاهلية)، فأنزل الله -تعالى- : (الجاهلية الأولى).

فإن صح ما رواه أبو هلال، يكون هذا الاصطلاح قد أخذ عمقه ومداه الشعبي أيضاً، وشاع حتى نزل فيه القرآن.

وأكثر هذه الاستعمالات وضوحاً هي المتمثلة في قول عمرو بن كلثوم في معلقته:

أَلاَ لاَ يَجْهَلَنَّ أَحَدٌ عَلَيْنَا ..... فَنَجْهَلَ فَوْقَ جَهْلِ الجَاهِلِيْنَا

فجاء بالفعل، واسم الفاعل، والمصدر في جملة شعرية واحدة، وفسروا المعنى هنا بالسفه، أي لا يسفهون أحد علينا فنعاقبه بما هو أعظم من سفهه. (5)

"وأما تحديد فترة الجاهلية، فهي في نظر المفسرين تمتد من الجاهلية الجهلاء، أو الجاهلية الأولى التي ولد فيها إبراهيم إلى الجاهلية الثانية التي فيها محمد (صلى الله عليه وسلم).

اختلف المفسرون في هذا التحديد، فقال بعضهم بأنها تقع بين عيسى ومحمد (صلى الله عليه وسلم)، وقال آخرون أنها تنحصر بين نوح وإدريس، أو بين عيسى وآدم، أو بين موسى وعيسى، أو بين عيسى ومحمد (صلى الله عليه وسلم)، والصحيح ما قدمناه، وهي المراحل التي سبقت الأديان السماوية الثلاثة المعروفة: اليهودية والنصرانية والإسلام. (6)

العصر الجاهلي:

يبتدئ باستقلال العدنانيين عن اليمنيين في منتصف القرن الخامس للميلاد وينتهي بظهور الإسلام سنة 622 م.

ويدرج جمهور الباحثين في الأدب قديماً وحديثاً على تسمية أدب العصر الذي يسبق الإسلام بالأدب الجاهلي، لأن أصحاب هذا العصر كانوا بدواً بالفطرة يعيشون تحت الخيام، ويعتمدون على رعي الأغنام، إلا قريشاً تحضروا إلى حدٍ كبير لقيامهم على البيت الحرام، وكذلك القحطانيون لحظ ديارهم من الخصب، والمطر، ووفرة الحَبْ، والثمر، بينما الإغارة، والغزو، وسببت فسادت القلوب، ودوام الحروب، وذهاب الأمن.

ومع هذا فالجاهليون يتصفون بالبأس، والسماحة، والألسن الفصيحة، ويعتزون بالقرابة، وغلبة عليهم الحرية، والعصبية لتقود أكثرهم إلى التجوال، ولم تكن لهم حكومة سياسية، ولا أنظمة عسكرية، ولا فلسفة دينية، فتأصلت في نفوسهم عبادة الأصنام، وتعبيدها، ونصبها على الكعبة تقرباً، وهذه الوثنية كانت دين الكثرة من العرب، أما القلة فكان، بعضها اليهودية في اليمن، ويثرب وما جاورها، وبعضها على النصرانية، بنجران، والحيرة، والغساسنة بالشام.

ومن الناحية الاجتماعية كانوا يفضلون الذكر ويئدون الأنثى، وهناك آفات كانت تشيع بينهم أهمها الخمرة، واستباحة النساء، والقُمار، وكانت القبيلة هي التنظيم الإداري الرئيسي، وأفرادها كانوا متضامنين أشد ما يكون التضامن، وأحكم عراه حرصهم على الشرف، وقد تكونت حوله مجموعة من الصفات الكريمة مثل: الكرم، والوفاء، وحماية الجار.

أما من الناحية العقلية فكان في اليمن، والمناذرة، والغساسنة حظ من العلوم يدل عليه ما أقاموه من سدود، وعمّروه من المدن، وبرع العرب في الأنساب، والأخبار، والأشعار محافظةً على عصبيتهم وتحدُّثاً بمفاخرتهم؛ وقادهم الجانب الروحي إلى الاعتقاد بالكهانة، والعرافة، وكان لهم أسواق للبيع، والتسوّق، والمفاوضة في الرأي والمباهاة بالفصاحة، والمفاخرة بالمحامد.

وكان الشاعر أو الخطيب يتوخى الألفاظ العامة والأساليب الشائعة قصداً إلى إفهام سامعه، وكان لهم أسواق أدبية أشهرها عكاظ، وذو الحجاز، وأولهن أشهر في تهذيب العربية.

والشعر عرّفه العروضيون بأنه (الكلام الموزون المقفى قصداً)؛ وأما المحققون من الأدباء فيخصون الشعر بأنه (الكلام الفصيح الموزون المقفى المعبر غالباً عن صور الخيال البديع).

والذي لا خلاف عليه أن الشعر يحمل أثره في إثارة العواطف، وتصوير أحوال النفس لا في حقائق نظرية.

العرب بفطرتهم مطبوعون بالشعر لبداوتهم، وملاءمة بيئتهم لتربية الخيال، ويشعر الإنسان أن الشعر متأخر في وجوده عن النثر.

والشعر الجاهلي شعر غنائي، لأنه جاء ذاتياً يصور نفسية الفرد، وما تجيش به من عواطف، وأحاسيس غنائية، فيه ترتبط بطبيعة الحال مع الغناء نفسه.

وأغراض الشعر الجاهلي كثيرٌ منها الرثاء والفخر والهجاء والغزل والحماسة وغيرها، وأيضاً منها البكاء المتصل بالرثاء في هذا العصر، فنجد الكثير من الشعراء يَبْكون عند رحيل محبوباتهم، وعند لحظة الفراق، فيبكُون ويقفون على الأطلال والرسوم والديار، وزيادة كل ما يتعلق بذكر المحبوبة، وبكاء على تلك الأيام التي كانت بينهم.

وقد يتبعها استرجاع لذكر الرحيل ووصفه وتتبع الراحلين من مكان إلى مكان، وتصوير ما أحدثه الرحيل في النفس بسبب فراق الحبيبة.

ومن ناحية أخرى فهناك فرق واضح بين البكاء والرثاء؛ فالبكاء يعبر عنه الشاعر بالدموع واسترجاع أيامه الماضية التي عاشها فيقف على الأطلال، والربع، والديار، أي يحدث البكاء في الأشياء التي تجيش في نفس الشاعر مثل: فراق الحبيبة عن حبيبها، أو هجرها إياه، أو بعدها عنه.

أما البكاء فإنه يحدث بتوجّع الشاعر، وتفجع النساء، على فقدان شخص ما عزيزاً عليهم، أي أن يحدث الرثاء بالوفاة شخص ما فيقوم الشاعر بتعداد مناقبه، وذكر صفة من صفاته التي كان يتحلى بها في حياته.

فهذا هو الفرق بين البكاء والرثاء في هذا العصر ولكن نجد بعض القصائد يذكر فيها البكاء دون الرثاء، أو بالعكس أي نجد يذكر الرثاء دون البكاء، وأحياناً نجد البكاء يذكر مع الرثاء.

وهنا سوف نتحدث عن البكاء في الشعر الجاهلي في مبحثين:

المبحث الأول

المطلب الأول: البكاء في اللغة (المعاجم)

"لقد جاء في معجم لسان العرب لفظ (التُبكاءُ): البكاء عن اللحياني، قال اللحياني: قال بعض نساء الأعراب في تأخيذ الرجال أخذتُه في دُبَّاء مُمَلإٍ من الماء فلا يزل في تمشاء وعينه في تبكاء.

وباكَيتُ فلاناً فبكيته، إذا كنت أكثر بُكاءً منه، وتباكي: تكلَّف البُكاء، البَكِيّ: الكثير البُكاء، على فعيل، ورجل باك، والجمع بُكاة وبكى، على فُعُول مثل جالس وجلوس، إلا أنهم قلبوا الواو ياء. (7)

وأبكى الرجل: صنع به ما يبكيه، وبَكَّاه على الفقيد: هيجه للبكاء عليه ودعاه إليه وبَكَاه، وبُكَاهَ، وتَبكَّاه، كلاهما: بَكَى عليه ورثاه.

وبكَاه بُكاءً وبكاهِ، كلاهما: بَكَى عليه ورثاه وقوله انشده تغلب:

وَكُنْتُ مَتَى أَرْى زِفّاً صَرِيعاً

يُناخُ عَلى جَنَازَتِه بَكَيْتُ

فسره فقال: أراد غنيتُ فجعل البُكاء بمنزلة الغناء، واستجاز ذلك لأن البُكاء كثيراً ما يصحبه الصوت الغناء.

والبَكَى، مقصور: نبت أو شجر، واحدته بَكاة، قال أبو حنيفة البَكاة مثلُ البشامة لا فرق بينهما إلا عند العالم بهما، وهما كثيراً ما تنبتان معاً، وإذا قطعت البَكاة هربقت لبناً أبيض؛ قال ابن سيدة: وقضينا على ألف البُكي بالياء لأنها لام لوجود (ب ك ى)، وعدم (ب ك و). (8)

وعندما نبحث عن لفظة البكاء في معجم مختار الصحاح فنجد الاتي:

بَكَى يبكي بالكسر (بُكاء) وهو يُمَدّ ويُقْصَر فالبُكاء بالمدّ الصَّوت، وبالقصر الدموع وخروجها.

و(بَكاه) و(بكي) عليه بمعنى و(بَكّاه) تُبْكيةً مثله و(أبكاه) إذا صنع به ما يُبْكِيه.

و(باكاه) فيكاه، إذا كان (أبكى) منه.

ومنه قوله:

فَالشَّمْسُ طَالِعَةٌ لَيْسَتْ بِكَاسِفَةٍ

تَبْكِي عَلَيْكَ نُجُومُ اللَّيْلِ وَالْقَمَرَا

قلت: أورد رحمه الله هذا البيت.

في (ك س ف) جعل النجوم، والقمر منصوبة بكاسفة وهنا جعلها منصوبة بقوله تبكي وفيه نظر.

و(استبكاه) و(أبكاه) بمعنى، و(تباكى) تكلّف البُكاء.

والبَكي بفتح الباء الكثير البُكاء، و(البُكُّى) بضم الباء جَمْع (باكٍ) مثل جالس وجلوس إلا أن الواو قلبت ياء. (9)

وأيضاً عندما نبحث عن لفظ البكاء في معجم مختار القاموس فنجد الاتي:

" بَكَى، يَبْكي بُكاءً، وبُكًى، فهو باكٍ، بُكاة، وبُكّى.

وأبْكاهُ: فَعَلَ به ما يُوجِبُ بُكاءَه، وبكاهُ بُكاءً، وبَكَّاهُ: بكى عليه ورثاه.

وبَكَى (الحمامُ ويشبهُ) غَنّى، والبَكِيُّ كَرضِي: الكثيرُ البُكاءِ، والتَّباكي: تَكَلُّفُ البُكاءِ. (10)

المطلب الثاني- مرادفات البكاء في اللغة:

عندما نبحث عن لفظ البكاء في اللغة فنجد الاتي:

إذا تهيأ للبكاء قيل: أجهش، فإذا امتلأت عينه دُمُوعاً قيل: اغرورقت عينه وترقرقت، فإذَا سَالَت قيل: دمعت وهمعت، فإذا حاكت دُمُوعها المطر قيل: هَمْت، فإذا كان لبكائه صوت قيل: نَحْبَ ونشح، فإذا صاح مع بكائِهِ قيل: أعْوَلَ. (11)

وهناك أصوات تراوغ البكاء مثل الصراخ والعويل.

أي أن الشخص عندما يبكي لفقدان أحد فإنه يراوغه بالصراخ، أي ارتفاع صوته بصوت عالٍ، أما العويل فإنه صوت للنساء خاصة فيبكين لفقدان شخص عزيز عليهن.

وهناك حركات متعددة عند بكاء شخص يقوم الباكي بشق ثيابه، وتمزيقها، ولطم الخدود، وشق الجيوب، وما إلى ذلك من الأشياء المذمومة التي ذمها الإسلام.

وهناك أنواع عديدة للبكاء مثل: المنهمر أي البكاء الشديد، والمنصب أي أن الشخص الباكي يقوم بالبكاء على فقدان شخص ما بالبكاء لفترات طويلة مثل: بكاء على فقدان الزوج لزوجته، وبكاء الأخ لإخوته أو بكاء الأب لأبنائه.

فكل ذلك قد يطيل البكاء لفترات طويلة وخير دليل على ذلك بكاء الخنساء (لأخويها معاوية وصخر) فنجد أنها تبكي عليهما بكاءً شديداً لفقدهما ولا يتوقف البكاء عليهما لفترات طويلة.

المبحث الثاني- بكاء الأهل والأقارب والأحباب:

انتشر وشاع في العصر الجاهلي بكاء الأهل والأقارب والأصدقاء وبكاء النفس وبخاصة عند حضور ساعة الموت، فقد كان بعض الشعراء قبل وفاتهم يبكي ويرثي نفسه.

فنجد في هذا العصر البكاء وغالباً ما يعبر عنه بالدموع، على الأشياء التي تجعل من فقدانها شعوراً بحاجة ناقصة، مثل فقد الأب لأحد أبنائه أو إحدى بناته أو زوجته أو صديقيه أو بالعكس.

المطلب الأول:

1- بكاء الحبيبة والديار:

انتشر في هذا العصر البكاء على الحبيبة الذي ارتبط بالوقوف على الأطلال، فيذكر الشاعر محبوبته من ألم الفراق، فيقوم باسترجاع تلك الذكريات واللحظات التي عاشاها مع بعضهما.

لأن الوقوف على مثل هذه الأطلال فإنها تسترجع كل ما سبق من أيام بينهما، فيقوم الشاعر بتذكار تلك الأيام والليالي التي قضاها مع محبوبته في هذا المكان ويقوم بمخاطبة تلك الأطلال والديار والرسم الداثر الذي لم يبق منه ألا رمزاً لمحبوبته يتذكرها كلما رأى هذا الرسم الداثر.

لأنَّ هذا الرسم الداثر والطلل تجده في أغلب القصائد في هذا العصر، نجده في مطلع القصائد على مختلف أغراضها، وتدور معاني هذا الاتجاه في الحديث عن رحيل المحبوبة، وفراقها، والوقوف على أطلالها، أو ديارها، ووصف هذه الأطلال أو الديار، والبكاء عليها، وقد يتبعها استرجاع لذكر الرحيل، ووصفه، وتتبع الراحلين من مكان إلى مكان، وتصوير ما أحدثه الرحيل في النفس، وتتميز بأنه حفظ لنا أسماء كثيرة من المواضع بالجزيرة العربية.

والواقع أن المقدمات الطللية لا تدل على عاطفة الشاعر الجاهلي نحو المرأة فحسب، بل تدل على ارتباطه العاطفي الذي يكنه الشاعر حول الأرض التي عاش فيها، وعلاقته بالمرأة التي أحبها، وارتبط بها، فبدأ امرؤ القيس في معلقته: (12)

قِفَا نَبْكِ مِنْ ذِكْرَى حَبِيبٍ ومَنْزِلِ ..... بِسِقْطِ اللِّوَى بَيْنَ الدَّخُول فَحَوْمِلِ ·

فَتُوْضِحَ فَالمِقْراةِ لمْ يَعْفُ رَسْمُها ..... لِمَا نَسَجَتْهَا مِنْ جَنُوبٍ وشَمْأَلِ

فهنا الشاعر يبكي من ذكر حبيبته، ثم يقف على الأطلال، ثم بعد ذلك يقف على الأطلال ثانية، وهو ما عبّر عنه في موضعين هما (توضح، والمقراة) موضعان في دياره.

ويقول أيضاً: (13)

قفا نَبْكِ مِن ذِكرَى حبيبٍ وَعِرْفانِ ..... وَرَسْمٍ عَفتْ آياتُه مُنذُ أزْمَانِ

فهنا الشاعر يقف، ويبكي على الأطلال يذكر حبيبته، لما له من اشتياق لرؤيتها، ولألم الفراق الذي حدث بينهما.

وكما أشرنا سابقاً "أن الشاعر الجاهلي وعلاقته بالمرأة؛ وجدنا أن المرأة قد شغلت حيزاً كبيراً في شعره، ويسير الشعراء الجاهليون الذين يتجهون هذا الاتجاه في الحديث عن رحيل المحبوبة وفراقها، ثم الوقوف على أطلالها، ووصف هذه الأطلال، والبكاء عليها، ودعوة الراكب أو الصحب إلى التعريج نحوها، وقد يتبعها استرجاع لذكرى الرحيل، ووصف الرحيل، وتتبع الراحلين من مكان إلى مكان.

ويصور أيضاً هذا الاتجاه كل ما تشيع فيه حرارة العاطفة، وتشع منه الأشواق، ويصوّر خلجات النفس، وفرحات اللقاء، وآلام الفراق، ولا يحفل بجمال المحبوبة بقدر ما يحفل بجاذبيتها وسحر نظراتها، وقوة أسرها، ثم يقتصر الشاعر فيه على محبوبة واحدة طيلة حياته أو ردحاً من حياته".(14)

ونجد ذلك عند الشاعر طرفة بن العبد يذكر حبيبته، فيقول: (15)

لِخَوْلَةَ أَطْلَالٌ ببُرقَةِ ثَهْمَدِ ..... تَلُوحُ كَبَاقِي الوَشْمِ فِي ظَاهِرِ اليَد

وُقوفها بِهَا صَحْبِي عَلَيَّ مَطِيَّهُمْ ..... يَقُولُون لا تهلِكْ أسًى وتَجلَدِ

ونجد الشاعر الأعشى الكبير وهو (ميمون بن قيس) يصف محبوبته فيقول: (16)

وَدَعْ هُرَيْرَةَ إن الرَّكب مُرتَحلُ

وهل تُطيقُ وداعاً أيها الرَّجُلُ.

وقد حافظ الشعراء الجاهليون على الوقوف على الأطلال مع ذكر المحبوبة، فيقف ثم يذكر محبوبته حتى ظلت مطلب الشعراء الإسلاميين من بعدهم، واستمرت إلى العصر العباسي الذي اتجه بعض شعرائه إلى مهاجمة الوقوف على الأطلال، مثل (أبي نواس) الذي دعا إلى البدء بوصف الخمر، ونبذ الافتتاحية بوصف الأطلال، وذلك حين قال: (17)

صِفةُ الطُّلولِ بَلَاغةُ القِدَمِ

فَاجْعَلْ صِفَاتِكَ لابْنِةِ الكَرَمِ.

فالمقدمة الطللية طلب مطلب الشعراء في مختلف حقب عهد الأدب الأول.

وكذلك يقول امرؤ القيس فيقف على الأطلال: (18)

عَوْجاً عَلَى الطَّلَلِ المُحِيلَ لأَنَّنَا

نَبكِي الدّيارَ كَمَا بَكَى ابنُ خِذامِ.

وأيضاً يقول (لبيد) في مقدمته الطللية: (19)

عَفَتْ الدِيَارُ مَحَلُهَا فَمُقَامَهَا

يَمَلىً تَابَدَ غوْلُها فرجامها.

وهكذا فقد رأينا مدى ارتباط ذكر المحبوبة بالوقوف على الأطلال والديار بالنسبة للشاعر الجاهلي فيبكي على فراق حبيبته ويقف على الأطلال ويناجيها ويتحدث إليها كأنها إنسان يتحاور معه ويخاطبه ويشكو له حاله التي أصابته من فراق حبيبته عنه ومدى تعلقه بها وبالديار التي كانت تسكن فيها قديماً.

2- وصف الليل:

كذلك وجد في هذا العصر - العصر الجاهلي - وصف الليل لكن العرب كانت في الجاهلية أكثر ترحالها في الليل، وفي ضوء القمر، لأن الشاعر إذا أراد أن يتخفى، فيجب توفر الجو اللطيف الذي من خلاله يتذكر محبوبته، ويذكر الأيام التي عاشها معها.

ونجد ذلك لدى بعض الشعراء الجاهليين مثل (امرؤ القيس) في أثار شعر الطبيعة عنده وصفه الجميل الرائع وطوله فيقول: (20)

وَلَيْلٍ كَمَوْجِ البَحْرِ أَرْخَى سُدُولَهُ ..... عَلَيَّ بِأَنْواعِ الهُمومِ لِيَبْتَلِي

فَقُلْتُ لَهُ لَمَّا تَمَطّى بِصُلْبِهِ ..... وَأَرْدَفَ أَعجازاً وَناءَ بِكَلكَلِ

أَلا أَيُّهَا اللَّيْلُ الطَّويلُ أَلا انْجَلِ ..... بِصُبْحٍ وَمَا الإِصْباحُ مِنْكَ بِأَمْثَلِ

فيا لَكَ مِنْ لَيْلٍ كَأَنَّ نُجُومَهُ ..... بِكُلِّ مُغارِ الفَتْلِ شُدَّتْ بِيَذْبُلِ

"والقاري يقف أمام هذه القطعة الفنية الجميلة متأملاً معجباً مشدوهاً من روعة البيان، وجمال التصوير، ودقة التعبير، وقوة التأثير، ومن هذه المعاني

الليل رهيب، ظلماته كالموج، اللجي؛ وقد أقبل على الشاعر، فأثار في نفسه الذكريات، لأنه يثير الشجن، وهاج كوامن الأحزان، وبعث الهموم من مرقدها، وترك النفس موزعة حيرى مفزعة.

واستمرت صور الماضي، وأحداث تتراءى أمام عينيه يتذكرها، ويذكرها بتذكر حياته اللاهية العابثة في صباه، وهذه الآمال التي تعتلج في صدره، وذكريات الحب، والأحباب المؤثرة الباقية".

ونجد وصف الليل عند النابغة الذبياني الذي يقول: (21)

فَإِنَّكَ كَاللَّيْلِ الَّذِي هُوَ مُدْرِكِي ..... وَإِنْ خِلْتَ أَنَّ الْمُنْتَأَى عَنْكَ وَاسِعُ.

المطلب الثاني- بكاء الأهل:

1- بكاء النفس:

يُعدُّ هذا النوع من أخصّ أنواع البكاء الذي نجد فيه الشاعر يعبر عن حالته الشخصية التي تكون أقرب شيء لديه، وفي هذه الصورة يتبين لنا مدى صدق هذا النوع من الشعر الذي يكون فيه الشاعر يرثي نفسه وخاصةً قبل موته.

ومن هنا يعتبر هذا النوع من البكاء أقرب إلى الشاعر من غيره؛ لأنه يبكي على نفسه التي يصورها في صورة شعرية رائعة وبخاصة في لحظات الوداع عند الذهاب إلى الرفيق الأعلى.

وقد نجد بعض الشعراء الذين يصفون أنفسهم في شعرهم، وخاصةً عند ذكر مواقفهم الشجاعة في الإقدام والكرم والرخاء، وكذلك نجدهم يصفون إلى غيرهم ما يكتبون على قبورهم، وتوضيح الحالة التي يكونون فيها.

ويعتبر هذا النوع من الشعر الخاص؛ لأنه يعني ذاتية الشاعر دون غيره، ولعل ذلك يكون واضحاً من خلال ذكر بعض الشواهد والمواقف التي نجد فيها الشعراء يرثون ويبكون أنفسهم في بعض الأبيات التي سنتناول ذكر بعضٍ منها.

أ. أفيون التغلبي:

من الشعراء الذين بكوا أنفسهم في حياتهم، شاعر جاهلي اسمه صريم بن معسر ابن ذهل التميمي، ويلقب بأفيون، حدث الرواة قالوا أنه لقي كاهناً فقال له إنك تموت بمكان اسمه إلاهة ومضى زمان طويل حتى إذا ركب أفيون مع قومه إلى الشام وأرادوا الانصراف طلبوا الطريق فقال أحدهم: سيروا حتى إذا كنتم بمكان كذا وكذا أظهر لكم الطريق ورأيتم إلاهة، وهي قارة بالسماوة، فلما أتوا إلاهة نزل الركب وأبي أفيون أن ينزل، فبينما ناقته ترتعي وهو راكبها إذا بحية تأخذ بمشفر ناقته، فتحك الناقة مشفرها بساق أفيون فيحس بالسم فقال لأخ كان معه اسمه معاوية:

احفر لي فإني ميت، ثم ما لبث ساعة حتى مات بعد أن قال يبكي نفسه: (22)

وَلَسْتُ عَلَى شَيْءٍ قُرُوحًا مُعَاوِيا

وَلَا الشَّفَقَاتُ يَتَّبِعْنَ الْحَوَارِيَا

وَلَا خَيْرَ مَا كَذَّبَ الْمَرَةِ نَفْسَهُ

وَتَقُوالُهُ الشَّيء يَا لَيْتَ وَالْيَا

وَإِنْ أَعْجَبَتْكَ الدَّهْرَ حَالَ مِنْ امْرِيءِ

فَدَعْهُ وَوَاكلَ حَالِهِ واللَّيْالِيَا

يَرَحْنَ عَلَيْهِ أَوْ يَغْيَرْنَ مَا بِهِ

وَإِنْ لَمْ يَكُنَ فِي جُوفِهِ الْعَيْشِ وَإِنهَا

فَيَا مُعْرِضاً إِنَّ الحَنُّوفَ نَذِيرَةٌ

وَإِنَّكَ لَا تُبْقِي بِنَفْسِكَ بَاقِيَا

لَعَمْرُكَ مَا يَدْرِي امْرُؤٌ كَيْفَ يَتَّقِي

إِذَا هُوَ لَمْ يَجْعَلْ لَهُ اللَّهُ وَاقِيَا

كَفَى حَزَنَا أَنْ يَرْحَلَ الرَّكْبُ غُدُوةً

وَنَزْلُكَ فِي أَعْلَى لاَهَةٍ ثَاوِيَا

ب. يزيد بن خُراق:

وثمة من الشعراء من بكى نفسه ووصف ما يكتب على القبر، ويقال إن أول من بكى على نفسه، وذكر الموت في شعره الجاهلي يزيد بن خراق، وهو الذي عاصر عمرو بن هند، وقال فيه أبو عمرو بن العلا:

أول شاعر ذم في الدنيا قاله يزيد بن خراق، وذلك في قصيدته التي منها هذه الأبيات في بكاء نفسه: (23)

هَل لِلْفَتَى مِن بَنَاتِ الدَّهْرِ مِنْ وَاقِ

أَمْ هَلْ لَهُ مِنْ حِمَامِ المَوْتِ مِنْ رَاقِ

قَدْ رَجَّلُونِي وَمَا بِالشَّعْرِ مِنْ شَعَثٍ

وَأَلْبَسُونِي ثِيَابًا غَيْرَ أَخْلَاقِ

وَطَيَّبُونِي وَقَالُوا أَيُّهَا رَجُلٌ

وَأَدْرَجُونِي كَأَنِّي طَيُّ مِخْرَاقِ

وَأَرْسَلُوا فِتْيَةً مِنْ خَيْرِهِمْ حَسَبًا

لِيُسْنِدُوا فِي ضَرِيحِ القَبْرِ أَطْبَاقِي

2- بكاء الأولاد:

يعتبر هذا النوع من الدرجة الثانية من بكاء الأهل، وسبب ذلك فهو يأتي في مكانة قريبة جداً من الشاعر باعتبار الابن جزءًا لا يتجزأ من الأب، ولهذا نجد أغلب الشعراء يبكون على أبنائهم بأروع القصائد، وأجملها من خلال ذكر صفاتهم ومكانتهم لدى آبائهم.

ومن هنا نجد بعض الشعراء قد يرثون أبناءهم من أجل الأخذ بالثأر ويكون ذلك واضحاً في حالة قتل الأبن، فيبكيه أبوه ثم يقوم بأخذ الثأر له.

وكذلك قد نجد بعض الشعراء يبكون أبناءهم، وهم في فراش الموت من جراء المرض بصورة شعرية رائعة يصور فيها الشاعر مدى عجزه أمام هذا المرض دون أن يخلصه منه.

ومن هنا يتبين أن بكاء الأبناء هو صورة شعرية رائعة، خاصةً عندما تحمل عاطفة صادقة تدل على الحزن الذي يكون فيه البكاء العميق على فقدان هذا الشيء العزيز على القلب، ويكون ذلك واضحاً في بعض الأمثلة التي سنتناول ذكرها فيما بعد من خلال بعض المراثي الشعرية.

أ- الحارث بن عُباد:

ابن قيس بن ثعلبة البكري، أبو منذر، حكيم جاهلي، شجاع، شاعر، انتهت إليه إمرة بني ضبيعة وهو شاب، وفي أيامه كانت حرب البسوس، فاعتزل القتال مع قبائل من بكر، ثم إنَّ المهلهل قتل ولداً له، فثار الحارث ونادى بالحرب، وارتجل قصيدته المشهورة التي كرر فيها قوله: "قربا مربط النعامة مني" أكثر من خمسين مرة، والنعامة فرسه، فجاؤوه بها فجزَّ ناصيتها وقطع ذنبها، وهو أول من فعل ذلك من العرب، فاتخذ سُنّة عند إرادة الأخذ بالثأر، ونُصرت به بكر على تغلب وأَسَرَ المهلهل فجزَّ ناصيته وأطلقه، وأقسم أن لا يكفّ عن تغلب حتى تكلمه الأرض فهم، فأدخلوا رجلاً في سرب تحت الأرض ومرّ به الحارث فأنشد الرجل:

أَبَا مُنْذِرٍ أَفْنيتَ فَاسْتَبِقْ بَعْضَنَا ..... حَنَانَيْكَ بَعْضُ الشَّرِّ أَهْوَنُ مِنْ بَعْضِ

فقيل: بر القسم، واصطلحت بكر وتغلب، وعمّر الحارث طويلاً وتوفي نحو 50 ق. هـ له رثاء ابنه "بجير": (24)

قُلْ لِأُمِّ الأَغَرِّ تَبْكِي بِجَيْرًا

حِيلَ بَيْنَ الرِّجَالِ وَالأَمْوَالِ

وَلَعَمْرِي لَأَبْكِيَنَّ بِجَيْرًا

مَا أَتَى المَاءُ مِنْ رُؤُوسِ الجِبَالِ

لَهْفَ نَفْسِي عَلَى بِجَيْرٍ إِذَا مَا

جَالَتِ الخَيْلُ يَوْمَ حَرْبٍ عِضَالِ

قَرِّبَا مَرْبِطَ النَّعَامَةِ مِنِّي

لِبَجِيرٍ فَدَاهُ عَمِّي وَخَالِي

ب- هذلية:

ومن بديع البكاء المرتبط بالرثاء، وأوجزه، وأبلغه وغريبه بيتان من الشعر قالتهما امرأة من هذيل في ابن لها، وكان له عشرة إخوة وعشرة أعمام فهلكوا جميعاً في الطاعون، ولما تزوجها ابن عم لها ولدت له غلاماً فنبت نباتاً حسناً، ولما بلغ زوجته وأخذت في جهازه حتى إذا لم يبق له إلا البناء أتاه الأجل فلم تشق جيباً عليه، ولم تدمع لها عين، فلما فرغوا من تكفينه دُعِيت لتوديعه، فأكبت عليه ساعة ثم رفعت رأسها ونظرت إليه وقالت بيتين من الشعر، ثم أكبت عليه ثانية فلم تقطع نحيبها حتى فاضت نفسها.

أما البيتان فهما: (25)

أَلَا تِلْكَ الْمُسَرَّةُ لَا تَدُومُ ..... وَلَا يَبْقى عَلَى الدَّهْرِ النَّعِيمُ

وَلَا يَبْقَى عَلَى الْحَدَثَانِ عَقْرٌ ..... بِشَاهِقَةٍ لَهُ أُمُّ رَؤُومُ

ج- مطرود بن كعب:

من خزاعة: له في بكاء بني عبد مناف وابنه المغيرة:

إِنَّ الْمُغِيرَاتِ وَأَبْنَاءَهُمْ

هُمْ خَيْرُ أَحْيَاءٍ وَأَمْوَاتِ

هُمْ سَادَةُ النَّاسِ إِذَا حُصِّلُوا

وَنَسْلُ سَادَاتِ لسَّادَاتِ (26)

د- أعرابي:

ومن جيد البكاء وأبلغه وأدقّه قول ذلك الإعرابي يرثي ابنه:

وَلَمَّا دَعوْتُ الصَّبْرَ بَعْدَكَ وَالأَسَى ..... أَجَابَ الأَسَى طَوْعًا وَلَمْ يُجِبِ الصَّبْرُ

فَإِنْ يَنْقَطِعْ مِنْكَ الرَّجَاءُ فَإِنَّهُ ..... سَيَبْقَى عَلَيْكَ الحُزْنُ مَا بَقِيَ الدَّهْرُ (27)

هـ- آخر:

ومن جيد البكاء وأبلغه وأرقّه قول الآخر في رثاء ابنه: (28)

بُنَيَّ لَئِنْ ضَنَّتْ جُفُونٌ بِمَائِهَا ..... لَقَدْ قَرِحَتْ مِنِّي عَلَيْكَ جُفُونُ

دَفَنْتُ بِكَفِّي بَعْضَ نَفْسِي فَأَصْبَحَتْ ..... وللنَّفْسِ مِنْهَا دَافِنٌ ودَفِينُ

3. بكاء الإخوة:

يعتبر هذا النوع من أنواع البكاء الذي يرتبط بالعلاقة الأخوية التي تكون قريبة جداً للشاعر باعتبار الأخ جزءاً لا يتجزأ منه بهذا الارتباط نجد أغلب الشعراء يبكون على إخوتهم بأروع القصائد، وأجملها من خلال ذكر صفاتهم، ومكانتهم بين قومهم.

ومن هنا قد تجد بعض الشعراء يرثون إخوتهم بسبب الفجيعة على فقده، التي تعبر عن تجربته بالحزن، والأسى، والألم، واللوعة؛ الفقد هذا العزيز الذي يكون فيه الرثاء الصادق، حيث الترنُّح من هول المصاب وبث اللوعة وتلهّب الضلوع.

وقد تجد بعض الشعراء قد يرثون إخوتهم من أجل الأخذ بالثأر ويكون ذلك واضحاً في حالة قتل هذا الأخ فيبكي عليه ثم يقوم بأخذ الثأر له.

ومن هنا يتبين لنا أنَّ رثاء الإخوة هو صورة شعرية رائعة وخاصة عندما تحمل عاطفة صادقة تدل على الحزن الذي يكون فيه البكاء العميق على فقدان هذا الشخص العزيز على القلب ويكون ذلك واضحاً من خلال ذكر بعض الشواهد الشعرية التي سنتناول ذكرها فيما بعد ليتبين لنا مدى عمق هذه العلاقة.

أ- جَنوب الهذلية:

لا يُعرف عن الشاعرة جَنوب سوى أنها أخت لعمرو ذي الكلب الهذلي، أحد بني لحيان، لم يؤثر عنها من شعرها غير قصائد قليلة في رثاء أخيها الذي قُتل على يد قبيلة فهم، أورد المرزباني خطأ في معجمه بيتين من الشعر لها ونسبهما إلى أخيها، والبيتان هما:

كُلُّ امْرِئٍ بِطَوَالِ العَيْشِ مَكْذُوبُ ..... وَكُلُّ مَنْ غَالَبَ الأَيَّامَ مَغْلُوبُ

وَكُلُّ مَنْ حَجَّ بَيْتَ اللَّهِ مِنْ رَجُلٍ ..... مَوَدٌّ فَمُدْرِكُهُ الشِّبَانُ وَالشَّيْبُ (29)

والحقيقة أن البيتين من قصيدة لجنوب ترثي أخاها، ومنها:

فلَمْ يَرَوْا مِثْلَ عَمْرو مَا خَطَتْ قَدَمٌ

وَلَنْ يَرَوْا مِثْلَهُ مَا حَنَتِ النَّيبِ

فَاجْزُوا تَأَبَّطَ شَرًا لَا أَبَا لَكُمْ

صَاعًا بِصَاعٍ فَإِنَّ الذُّلَّ مَعْتُوبُ. (30)

ب- دريد بن الصّمّة:

معاوية بن الحارث، الجشمي البكري، من هوازن، شجاع من الأبطال الشعراء المعمرين في الجاهلية، كان سيد بني جشم وفارسهم وقائدهم، غزا نحو مائة غزوة لم يهزم في واحدة منها.

عاش حتى سقط حاجباه عن عينيه، قتل على دين الجاهلية يوم حنين، قتله ربيعة بن رفيع السلمي سنة 8 هـ، والصّمّة لقب أبيه، له قوله يرثي أخوته:

تَقولُ أَلا تَبكي أَخاكَ وَقَد أَرى

مَكانَ البُكا لَكِن بُنيتُ عَلى الصَبرِ

فَقُلتُ أَعَبدَ اللَهِ أَبكي أَمِ الَّذي

لَهُ الجَدَثُ الأَعلى قَتيلَ أَبي بَكرِ

وَعَبدُ يَغوثَ تَحجُلُ الطَيرُ حَولَهُ

وَعَزَّ المُصابُ جَثوَ قَبرٍ عَلى قَبرِ (31)

ج- عمرو بن حلزة:

من بني يشكر، أخو الحارث، صاحب المعلقة، له من شعر يرثي فيه أخاه الحارث:

يَا مَنْ الأَيَّامُ مُغْتَرٌّ بِهَا

مَا رَأَيْنَا قَطَّ دَهْرًا لَا يَخُونُ

هَوّنِ الأَمْرَ تَعِشْ فِي رَاحَةٍ

قَلَّمَا هَوَنْتَ إِلَّا سَهُونَ (32)

د- كعب الغنوي:

بن سعد أبوه سعيد، له في رثاء أخيه أبي المغوار، وكان قتل في وقعة ذي قار:

فَتًى مَا يُبَالِي أَنْ يَكُونَ بِجِسْمِهِ

إِذَا نَالَ خُلَّاتِ الكِرَامِ شُحُوبُ

فَلَوْ كَانَتْ تُبَاعُ اشْتَرَيْتُهُ

بِمَا لَمْ تَكُنْ عَنْهُ النُّفُوسُ تَطِيبُ (33)

هـ- مهلهل" " ت حوالي 570 م"

يقول المهلهل في رثاء أخيه كليب: (34)

أَهاجَ قَذاءَ عَينِيَ إِلَّا ذِكارُ ..... هُدُوّاً فَالدُموعُ لَها اِنحِدارُ

وَصارَ اللَيلُ مُشتَمِلاً عَلَينا ..... كَأَنَّ اللَيلَ لَيسَ لَهُ نَهارُ

و- الخنساء: " ت حوالي 25 هـ / 646 م "

الخنساء هي أم عمرو تماضر بنت عمرو بن الحارث الملقبة بالخنساء، وهي البقرة الوحشية تشبه بها المرأة لحسن عينها، شاعرة من أشهر شواعر العرب في الجاهلية والإسلام، ويكاد يكون شعر الخنساء وقفاً على الرثاء في أخويها معاوية وصخر، وهذا الأخير كان مضرب المثل في الشجاعة والإقدام والسؤدد.

حدث الرواة فقالوا إن الخنساء كانت تنشد الشعر في الجاهلية بسوق عكاظ وقد أنشدت مرة بين يدي النابغة الذبياني فأعجب بشعرها ثم قال: اذهبي فأنت أشعر من كل ذات ثديين، ولولا أن هذا الأعمى يريد الأعشى أنشدني قبلك لفضلتك على شعراء هذا الموسم.

والمهم في الأمر أن الخنساء شاعرة جيدة الشعر، وعن رثاءها لأخويها صحر ومعاوية من أشهر شعراء الرثاء في الأدب العربي.

قالت الخنساء ترثي صخراً: (35)

قَذًى بِعَيْنِكِ أَمْ بِالعَيْنِ عُوَّارُ ..... أَمْ ذَرَفَتْ إِذْ خَلَتْ مِنْ أَهْلِها الدَّارُ

تَبْكِي لِصَخْرٍ هِيَ العَبْرَى وَقَدْ وَلِهَتْ .....وَدُونَهُ مِنْ جَدِيدِ التُّربِ أَسْتَارُ

تَبْكِي خُنَاسٌ عَلَى صَخْرٍ وَحَقَّ لَهَا ..... إِذْ رَابَهَا الدَّهْرُ إِنَّ الدَّهْرَ ضَرَّارُ

مَشَى السَّبَنْتِي إِلَى هَيْجَاءَ مُعْضَلَةٍ ..... لَهَا سِلَاحَانِ أَنْيَابٌ وَأَظْفَارُ

وَإِنَّ صَخْرًا لَوَالِينَا وَسَيِّدُنَا ..... وَإِنَّ صَخْرًا إِذَا نَشْتُو لَنَحَّارُ

ولها فيه أيضاً: (36)

أَلا يا صَخرُ إن أَبكَيتَ عَيني

لَقَد أَضحَكتَني دَهراً طَوِيلاً

بَكَيتُكَ في نِساءٍ مُعوَلاتٍ

وَكُنتُ أَحَقَّ مَنْ أَبدَى العَوِيلاَ

دَفَعتُ بِكَ الجَلِيلَ وَأَنتَ حَيٌّ

فَمَنْ ذَا يَدفَعُ الخَطبَ الجَلِيلَا

إِذا قَبُحَ البُكاءُ عَلى قَتيلٍ

رَأَيتُ بُكاءَكَ الحَسَنَ الجَميلا

4- بكاء الأزواج

يُعَدُّ هذا النوع من شعر البكاء الذي يختص بالزوج الذي يكون في منزلة قريبة جداً من القلب بالنسبة إلى الزوجة باعتباره هو الحبيب والأخ والصديق والأب إلى غير ذلك.

ومن هنا نجد أن معظم من يقول الشعر في هذا النوع هو الزوجة التي تفقد زوجها، فتجدها تبكيه بأروع القصائد التي تدل على الفجيعة التي أصابتها والتي تعبر عنها بأصدق التعابير التي تدل على تجربة الحزن والأسى والألم واللوعة لفقد هذا العزيز أو القريب من القلب.

ومن خلال هذه الصورة التي مر ذكرها يتبين لنا كيف كانت العلاقة الزوجية بينهم في تلك الفترة بما تحمله من عاطفة صادقة تدل على الحزن الذي يكون فيه البكاء العميق على فقد هذا الشيء العزيز.

ولعل ذلك يكون واضحاً في بعض النماذج الشعرية التي تدل على مدى صدق هذه العلاقة التي تنشأ من خلال العشرة والاحترام والتعاون أثناء الحياة الزوجية والتي سنتناول ذكرها فيما بعد.

أ- الخرنق بنت بدر:

بنت هفان بن مالك، من بني ضبيعة، البكرية العدنانية، شاعرة من الشهيرات في الجاهلية، وهي أخت طرفة بن العبد لأمه، ومن المؤرخين من يسميها " الخرنق بيت هفان بن مالك " بإسقاط بدر زوجها بشر بن عمرو بن مرثد سيد بني أسد وقتله بنو أسد يوم قلاب، فكان أكثر شعرها في رثائه ورثاء من قتل معه من قومها، ورثاء أخيها طرفة، توفيت نحو 52 ق. هـ لها من أبيات ترثي زوجها بشراً وابنها علقمة وأهلها:

أَلا لَيْتُ آسى بَعَد بِشرٍ

عَلى حَيٍّ يَموتُ وَلا صَديقِ

وَبَعدَ الخَيرِ عَلقَمَةَ بنِ بِشرٍ

إِذا نَزَتِ النُفوسُ إِلى الحُلوقِ

وَبَعدَ بَني ضُبَيعَةَ حَولَ بِشرٍ

كَما مالَ الجُذوعُ مِنَ الحَريقِ

فَكَم بِقُلابَ مِن أَوصالِ خِرقٍ

أَخي ثِقَةٍ وَجُمجُمَةٍ فَليقِ (37)

ب- أعرابية:

ومن الرثاء الجيد ما قالته إعرابية في زوجها: (38)

كُنّا كَغُصنَينِ في جُرثومَةٍ بَسَقا

حيناً عَلى خَيرِ ما يُنمى لَهُ الشَجَرُ

حَتّى إِذا قيلَ قَد طالَت عُروقُهُما

وَطابَ غَرسُهُما وَاِستَوسَقَ الثَمَرُ

أَخنى عَلى واحِدٍ رَيبُ الزَمانِ وَما

يُبقي الزَمانُ عَلى شَيءٍ وَلا يَذَرُ

كنَّا كأنجم ليلٍ بينَها قمرٌ

يَجْلُو الدُّجَى فَهْوَى مِنْ بَيْنِهَا القَمَرْ

ج- جارية:

ومن أعجب البكاء وغريبه وأصدقه رثاء الجارية وقد وقفت على قبر من كانت ملك يمينه وكأنها تمثال وعليها من الحلي والحلل لم يرَ مثله، وكانمت تبكي بغزارة، وتصوت وتنشج وهي تقول:(39)

فإن تسألاني فيمَ حزني فإنني ..... رهينةُ هذا القبرِ يا فتيانِ

وإني لأستحييه والترابُ بيننا ..... كما كنتُ أستحييه حين يراني

أهابُك إجلالاً وإنْ كنتَ في الثرى ..... مخافةَ يومٍ أنْ يسوءَ لساني

ثم اشتد بكاؤها وجعلت تقول: (40)

يا صاحبَ القبرِ يا مَن كانَ يَنعم بي ..... عَيشاً ويكثرُ في الدنيا مواساتي

قَد زرتُ قبركَ في حليٍ وفي حللٍ ..... كأنّني لستُ مِن أهلِ المصيباتِ

أَردتُ آتيكَ فيما كنت أعرفهُ ..... أَن قد تسرّ بهِ مِن بعض هيئاتي

فَمَن رآني رَأى عبرى مولّهةً ..... عَجيبةَ الزيّ تَبكي بين أمواتِ

5- بكاء الآباء

يعتبر هذا النوع من أنواع البكاء الذي يرتبط برابط قوي وهو الأب الذي يعتبر هو أساس الأسرة، ذات المكانة العالية، وهو الآمر الناهي الذي يسير الأسرة وينظم حياتها ويوفر لها ظروف الراحة والأمان.

ومن هنا يتبين لنا مكانة الأب داخل الأسرة ومدى أهميته ودوره في تكوينها وعند فقدان هذا العنصر الأساسي الذي كان يوفر الراحة والاستقرار لأعضاء أسرته، فعند فقده يحتل هذا النظام.

فمن هنا يتبين لنا نوع الفجيعة التي أصابت أبناءه على افتقاده فتجدهم يبكون عليه بصورة شعرية مؤثرة تبين لنا مدى الحزن والأسى والألم واللوعة لفقد هذا العزيز الذي يكون بصورة صادقة حيث الترنّح من هول المصاب وبثّ اللوعة وتلهّب الضلوع.

ولعل ذلك يكون واضحاً من خلال ذكر بعض النماذج الشعرية التي تبرز لنا هذه المكانة السامية التي يكون عليها الأب داخل الأسرة التي سنتناول ذكرها فيما بعد.

أ- بدربن مالك:

من بني فزارة، له قوله يرثي أباه وكان قتله أولاد بدر بن فزارة في حرب داحس والغبراء:

فَلِلَّهِ عَينا مَن رَأى مِثلَ مالِكٍ

عَقيرَةَ قَومٍ أَن جَرى فَرَسانِ

فَإِنَّ الرِباطَ النُكْدَ مِنْ آل دَاحِسٍ

أَبَيْنَ فِيمَا يَفْلَحْنَ يَوْمَ رِهَانِ (41)

ب- برّة بنت عبد المطلب:

وهي عمة النبي " صلى الله عليه وسلم " وجدها هاشم بن عبد مناف، ينسب إليها قولها ترثي أباها عبدالمطلب:

أَعينيّ جُودا بِدمعٍ دَرِر ..... على ماجدِ الخيم والمعتصَر

عَلى ماجدِ الجدّ واري الزناد ..... جَميل المحيّا عَظيم الخَطر

عَلى شيبةِ الحمدِ ذي المكرمات ..... وَذِي المجدِ وَالعزّ وَالمُفتخر (42)

ج- حارثة بنت كلمن:

أحد ملوك مدين، ينسب إليها قولها ترثي أباها:

كَلْمَنُ هَدّمَ رُكْنِي

هَلَكَهُ وَسْطَ المَحلَّةِ

سَيّدُ القَوْمِ أَتَاهُ

الحَتْفُ نَاراً تَحْتَ ظِلّهِ (43)

د- خالدة بنت هاشم:

بن عبد مناف بن قصّي، شاعرة من شواعر الجاهلية، وحكيمة من الحكماء، لم يبق شعرها إلاّ القليل، ومنها أبيات في رثاء أبيها هاشم:

عينُ جودي بعبرةٍ وسجومِ ..... وَاسفَحي الدمعَ للجواد الكريمِ

عَينُ وَاستَعبري وسحّي وحُمّي ..... لأبيكِ المسوّدِ المعلومِ

هاشم الخيرِ ذي الجلالةِ والحموَ ..... وذي الباعِ وَالندى والصميمِ

الخاتمة:

ويمكننا في نهاية بحثي أن نستنتج بعض النتائج وهي:

1- نلاحظ مما سبق أن القصيدة الجاهلية في غرض البكاء قد اتسمت بالوضوح والسهولة في ألفاظها وبتعبيراتها الجزلة الموحية بالصدق في العاطفة وبأسلوبها الجزل الموحي المعبر عن لوعة الفراق والألم لفقدانها أعز الناس إليها.

2- الشعر الجاهلي أو القصيدة الجاهلية قد اتسمت بالبساطة والصدق والوضوح وعدم التكلف أو الاعتراف في الأداء، وأيضاً يمتاز بالزهد في المحسنات وألوان التزيين الفني وهذه سمة غالية عليه.

3- القصيدة الجاهلية امتازت بمتانة الأسلوب وقوتها وجزالتها وللبيئة البدوية أثر بعيد في ذلك.

4- تمتاز القصيدة الجاهلية بالقصد إلى المعنى في إيجاز ويسر وقلة إطناب.

5- أهم طابع للشعر الجاهلي هو الطابع البدوي الواضح الذي نلاحظه في ثنتي القصائد الجاهلية وتلك لأثر البيئة والحياة الجاهلية.

6- شعر البكاء في الشعر الجاهلي وجدناه قد ارتبط بالرثاء في هذا العصر، وأن أغلب الشعراء يبكون على فقدان شخص عزيز عليهم ويرثونه.

7- البكاء في الشعر الجاهلي ظاهرة بارزة تعبر عن المشاعر الإنسانية العميقة التي عاشها الشاعر الجاهلي، ولم يكن دليل ضعف بل علامة صدق وإحساس.

8- رأينا أن كثير من الشعراء يبتدؤوا قصائدهم بالوقوف على الأطلال، ديار الأحبة والبكاء عليها تعبيراً عن الحنين للماضي وما فيه من ذكريات.

9- البكاء تعبيراً عن الهدف العاطفي ليؤكد عمق مشاعرهم وصدق أحاسيسهم، فكان وسيلة فنية مؤثرة في القصيدة.

10- البكاء في الشعر الجاهلي ليس مجرد دموع، بل وسيلة فنية للتعبير عن الحزن والحنين والفقد، مما اضفى على الشعر الجاهلي طابعاً إنسانياً صادقاً.

11- البكاء وسيلة لتفريغ التوتر العاطفي وتأكيد عمق التجربة الشعورية.

12- البكاء الجاهلي ظاهرة مركبة تجمع بين البكاء والرثاء.

13- البكاء يعكس الحالة النفسية للشاعر الجاهلي.

المراجع:

1- الحيوان للمحافظ نقلاً عن الدكتور: شوقي صيف، الأدب الجاهلي، ص (38).

2- العصر الجاهلي، د. شوقي ضيف، دار المعارف، ط (15) ص 38-39.

3- أدب ما قبل الإسلام، د. محمد عثمان على، مكتبة طرابلس العلمية العالمية، سنة (83-85-88-1994)، ص 122.

4- الأدب الجاهلي، د. عادل حاسم البياتي، دار البيضاء، سنة الطباعة 1986 م، ج (1)، ص (12).

5- المرجع السابق، ص (13).

6- المرجع نفسه، ص (18).

7- معجم لسان العرب، مج 2، للإمام العلامة ابن منظور، دار صادر بيروت، مادة "بكا"، ص (136).

8- المرجع السابق ص (137).

9- معجم مختار الصحاح، للشيخ الإمام حمد بن أبي بكر بن عبد القادر الرازي، عنى بترتيبه: محمود خاطر، دار المعارف بمصر، سنة 1973 ف، مادة (بَكَى)، ص (62).

10- معجم مختار القاموس، للمؤلف: الطاهر أحمد الزاوي، الدار العربية للطباعة، مادة (بَكَى)، ص (61).

11- فقه اللغة: للإمام أبي منصور الثعالبي، دار العربية للكتاب، ليبيا تونس، ط 1981 م، ص (101).

12- أشعار الشعراء الستة الجاهليين، للعلامة الشنتمري، دار الأفاق الجديدة، بيروت، ج (1-2)، ص (29).

13- المصدر السابق، ص (80).

14- أدب ما قبل الإسلام، د. محمد عثمان على، ص (14-15).

15- روائع الأدب العربي، د. صلاح الدين الهواري، دار مكتبة الهلال، بيروت، ط (1)، سنة 1999 ف، ص (18).

16- المرجع السابق، ص (20).

17- أدب ما قبل الإسلام، د. محمد عثمان على، ص (122).

18- أشعار شعراء الجاهلين، للعلامة الشنتمري، ج (1-2)، ص (94).

19- روائع الأدب العربي، د. صلاح الدين الهواري، ص (83).

20- أشعار شعراء الجاهلين، للعلامة الشنتمري، ج (1-2)، ص (24).

21- المصدر السابق، ص (183).

22- العقد الفريد، ابن عبد ربه أحمد، دار الطباعة، القاهرة، ج 2، 1965 م، ص (10).

23- العقد الفريد، ج 2، ص (9).

24- موسوعة شعراء العرب، د. يحيى شامي، ط. دار الفكر العربي، بيروت، طبعة أولى، 1999 م، ج (1)، ص (58).

25- العقد الفريد، ج (2)، ص (15).

26- موسوعة شعراء العرب، ج (1)، ص (173).

27- أروع ما قيل في الشعر العربي، د. يحيى شامي، ط دار الفكر العربي، بيروت، الطبعة الأولى، ج (1)، 1999 م، ص (136).

28- المصدر السابق، ج (1)، ص (136).

29- موسوعة شعراء العرب، ج (1)، ص (51).

30- معجم الشعراء، المرزباني، دار بروت، 1948 م، ط/ دمشق، ص (216).

31- موسوعة الشعر العربي، ج (1)، ص (376).

32- موسوعة شعراء العرب، ج (1)، ص (106).

33- المصدر السابق، ج (1)، ص (159).

34- تاريخ الآداب العربية، وليد يوسف عطا الله، تحقيق: علي عطوي، ط/ دار عزالدين، بيروت، 1986 م، ج (1)، ص (97).

35- تاريخ الآداب العربية: ج (1)، ص (140).

36- الكامل في اللغة العربية، للمبرد، ط/ مكتبة المعارف، بيروت، ج (2)، ص (344).

37- موسوعة شعراء العرب، ج (1)، ص (71).

38- العقد الفريد، ج (2)، ص (22).

39- المصدر السابق، ج (2)، ص (22).

40- المصدر نفسه، ص (22).

41- موسوعة شعراء العرب، ج (1)، ص (34).

42- المصدر السابق، ص (35).

43- المصدر نفسه، ص (59).